A Phonetics Study of Surah Yunus

Mohammad Ebrahim Khalifeh Shooshtari*
Taleb Rabiei**

Abstract:
Stylistic studies look at the literary text as a homogeneous and coherent unit that we cannot isolate its parts from each other. In this study, Surah Yunus has been studied in terms of its Phonetics aspect, which is one of the most important issues in stylistic studies. This study aims at revealing the relationship between sound and meaning in this Surah and the extent of the cohesion and harmony between these sounds and their implications. This study was based on the statistical method in the distribution and analysis of the voices in the Surah. In this research, it was discovered that, in the Quran, the voices have been amazingly used. So, you can guess the meaning by the type of voices which is used in the verses. And it was found that this Surah has unity in terms of rhythm, and tends to present loud sounds. It was also repeated with a large number of clear voices such as soft and accent voices. This is common in the Arabic speech. In fact, the Surah has followed in this field of Arabic language structure. This rhythm in the Surah presents almost smooth and flexible rhythm, which is rarely seen its tones goes up or down except when necessary. The voices came in harmony with the content and purpose of the verses, so that their voices cannot be replaced by others, and the verse remains as it is a sign of significance and beauty.

Keywords: Al-Quran, Yunus Surah, Stylistic, Sound.

References:

-The Holy Quran.
- Aloosi, S. M. (1994). *The spirit of the meanings in the interpretation of the Great Quran*, vol. 6, 3rd ed., Beirut: dar elkotob alElmieah press.
- AbulAdoos, Y. (2009). *Stylistic; Between theory and application*, 2rd ed., Ammaan, Jordan: dar elMasirah press.
- Ebn elJazri, A. M. M. A. (no date). *Publish in The ten readings*, investigator: Ali Mohammad alDeba ,aBeirut: dar elkotob alElmieah press.
- Ebn jenni, A. O. (no date). *The secret of the mystery in the words analysis*, investigator: hassan alhendawi, without an edition.
- Ebn Ashoor, M. T. (no date). *Edit and Brightness*, vol. 11, Beirut: History institute press.

* Professor of Arabic Language and Literature, University of Shaid Beheshti, Tehran, Iran (Responsible author) Email: moebkhalifeh@gmail.com
** Ph. D. Student of Arabic Language and Literature, University of Shaid Beheshti, Tehran, Iran
Received: 03/06/2018 Accepted: 18/09/2018
This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

- Ebn ManDoor, J. M. M. (no date). *The tongue of the Arab*, investigator: Abdullah Ali Alkabir and others, Egypt: dar elMaa ref press.
- Anis, E. (no date). *Linguistic sounds*, Cairo: nahd tamesr press.
- Tarorit, B. (2006). *Lectures in contemporary literary criticism*, Constantine, Algeria: dar elFajr press.
- Beshr, K. (2000). *phonetics*, Cairo: dar gharib press.
- Tamam, H. (1993). *Clarity in the Masterpieces of the Quran A linguistic and stylistic study of the Qur'anic text*, Cairo: Alam alKetab press.
- Hawi, S. (2003). *The basis of interpretation,* vol. 5, 6rd ed., Cairo: dar elSalam press.
- Razi, F. M. O. (1999). *Keys of the hidden world,* vol. 17, 3rd ed., Beirut: dar Ehiaa altorath alArabi press.
- Rafea i, M. S. (1973). *The miracle of the Quran and the prophet rhetoric*, 6rd ed., Beirut: dar alketab alArabi press.
- Sayyed Qotb, S. Q. E. Sh. (1991). *In the shadows of the Quran,* vol. 3, 17rd ed., Beirut/Cairo: dar alShorooq press.
Sayyed Qotb, S. Q. E. Sh. (2002). *The artistic image in the Quran*, 16rd ed., Cairo: dar alShorooq press.
- Shayeb, A. (1991). *Stylistic; a rhetorical study of the origins of structural methods*, 8rd ed., Eygpt: Egyptian movement Library.
- Tabtabiee, S. M. A. (1996). *The balance in the interpretation of the Quran,* vol. 10, 5rd ed., Qom: Islamic Publishing Community of Teachers in Howzeh Elmiye Qom.
- Abbas, H. (1998). *Characteristics and meanings of Arabic letters*, Damascus: Publications of the Arab Book Union.
- Omar, A. M. (1998). *Arabic language research with a study of the issue of influence and impact*, 6rd ed., Cairo: Alam alKetab press.
- Solaiman, F. A. (2004). *Stylistic Theoretical; approach and applied study*, Cairo: Library of literature.
- Fadullah, S. M. H. (1998). *Interpretation of the revelation of the Quran*, Beirut: dar alMalak press.
- Kashani, M. F. (2002). *Abstract of the Interpretations,* vol. 3, Qom: Islamic Educational Foundation press.

Thesis and Articles:

- Rima, Y. (2012/2013). *Ben Darid's acoustic approach*, (Master Thesis), alHajj lakhdar- Batenah University, Faculty of Literature and Arts.
- Awda, Kh. (1994). The Stylistic approach in the study of the literary text, *Al Najah Research Journal*, 2(8).

بحوث في اللغة العربية: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ٢٠ (ربيع وصيف ١٤٤٠هـ. ق/ ١٣٩٨ هـ. ش)، ص ٢٠ ـ ١

سورة يونس عليه السلام

دراسة صوتية دلالية[١]

محمد إبراهيم خليفه شوشتري ❖
طالب ربيعي ❖❖

الملخّص

إن الدراسات الأسلوبية تنظر إلى النص الأدبي على أنه وحدة متجانسة ومتلاحمة ولا يمكن عزل أجزائها بعضها عن بعض. وهذه المقالة تدرس سورة يونس عليه السلام من منظارها الصوتي، وهو أحد مواضيع الدراسة الأسلوبية وتهدف إلى كشف العلاقة بين الصوت والمعنى في السورة ومدى التلاحم والتناغم بين الأصوات ودلالاتها. تعمدت الدراسة إلى المنهج الإحصائي في كيفية توزيع الأصوات الموجودة في السورة وتحليلها ودلالتها. واتّضح لنا أن التعبير القرآني وظّف الأصوات في السورة تعبيراً يشعرنا بدلالة السياق عن طريق إيحاءات الأصوات. ولوحظ أن لهذه السورة وحدة ايقاعية نوعاً ما، بحيث غلب عليها ميلها إلى الأصوات المجهورة والشديدة، وأيضاً كثرة تكرار الأصوات التي تتصف بالوضوح كأصوات المدّ واللين والأصوات البينية، وهذا ما نراه مطّرداً في الكلام العربي، وهي بذلك لم تخالف قواعد اللغة، وإنما سارت على خُطاها. وهذا الإيقاع المنتشر في السورة سَلِس مَرِن رزين، وقلّما نراه تعلو نبرة أصواته أو تخفى كثيراً جداً. جاءت الأصوات فيها متناسقة مع مضامين وغرض الآيات الواردة فيها، بحيث لا يمكن استبدال أصواتها بغيرها وتبقى الآية على ما هي عليه من الدلالة والجمال.

المفردات الرئيسية: القرآن، سورة يونس، الأسلوبية، الصوت

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٩٧/٣/١٣هـ. ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٧/٦/٢٧هـ. ش.

❖ أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد بهشتي (الكاتب المسؤول) Email: moebkhalifeh@gmail.com
❖❖ طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد بهشتي Email: eetaleb163@gmail.com

١ـ المقدمة

الأسلوبية من العلوم التي ذاع صيتها وباتت من العلوم التي لا يمكن غضّ الطرف عنها. فهي في عصرنا الحاضر تحظَى بسهم وافر من البحوث التي تهتم بالأدب وتحليل نصوصه. فكلّ تعبير أو صورة شعرية حتى كلّ لفظ و صوت يستخدمه الأديب ينبئ عَمَّا يجول في خاطره من الأفكار والأحاسيس والمشاعر. والتمحيص فيها يعطي الباحث بعض الأضواء الخضراء لاقتحام عالم الأديب وعقليته. وهكذا يبدو أنّ أهم سمات المنهج الأسلوبي هو استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص والظواهر المميزة التي تشكل سمات خاصة فيه، ثم محاولة التعرف على العلاقات القائمة بينها وبين شخصية الكاتب. فالكاتب يكوِّن مادته اللغوية وفق أحاسيسه ومشاعره التي تجعله يلحّ على أساليب معينة ويستخدم صيغاً لغوية خاصة ذات دلالات صوتية تشكل في مجملها ظواهر أسلوبية لها دلالتها في النص الأدبي.

وأما سبب اختيار الموضوع، فهو الرغبة القوية في دراسة كتاب اللّه المنزَل والكشف عن الجوانب الجمالية في هذا الكتاب العزيز الذي كلّه نور ورحمة للعالمين والإسهام في كشف الستار عمّا يحمل هذا النصّ العزيز المعجز من دلالات بحاجة إلى التأمل والتفكير. وأيضاً عدم وجود دراسة، بحسب علم الباحث، تطرقت إلى هذه السورة من منظار الأسلوبية، وأيضاً إيقاع هذه السورة الهادئ كان له تأثيرٌ في هذا الاختيار. وكذلك تكمن أهمية هذه الدراسة في إثراء المكتبة الإسلامية بمثل هذه الرؤية والنظرة للنص القرآني بصورة أخص وللنصوص الأدبية بصورة أعم. والمنهجية المعتمدة في هذه الدراسة هي تناول أنواع الأصوات التي تشكلّ ظاهرة أسلوبية تؤثر تاثيرا بالغا في السياق مما تستحق بالدراسة والنقد.

٢ـ أسئلة البحث

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

ـ ما أبرز السمات الأسلوبية الصوتية في هذه السورة؟

ـ ما مدى التناغم بين الأصوات وكيفية انتشارها في السورة وبين ما نزلت السورة من أجله؟

ـ ما مدى مساهمة الصوت في الإيحاء بالمعنى في السياق الوارد فيه؟

٣ـ خلفية البحث

توجد آراء قيمة في مجال الصوت وصلته بالمستوى اللغوي والمعنى في تراثنا الإسلامي. ولعلّ أول من التفت إلى صلة الدرس الصوتي بالنحو واللغة هو خليل بن أحمد الفراهيدي (هـ.ق)، وتبعه في ذلك تلميذه سيبويه (هـ.ق). فهما بنيا ترتيب الأصوات على أساس منطقي، انطلاقاً مِن معرفة خصائص الحروف وصفاتها. ومِن أبرز العلماء القدامى الذين اهتموا بهذا المجال هو ابن جني (هـ.ق)، والذي قد تعرّض في كتابَيه *سرّ صناعة الإعراب والخصائص*، لقضايا الصوت متعمقا. وأما في مجال الدراسات المعاصرة فيبدو أنّه لا توجد دراسة اهتمت بهذه السورة أسلوبياً من منظار صوتي، إلا أنّه هناك رسائل جامعية تناولت سُور أخرى من القرآن بالدرس وقامت بتحليلها تحليلاً أسلوبياً، منها:

ـ «دراسة أسلوبية في سورة الكهف»؛ رسالة ماجستير للباحث مروان محمد سعيد ( ). جاء الفصل الأول تحت عنوان المستوى اللغوي، وتناول فيه المستويات الصوتية والصرفية والنحوية. وبخصوص ما تطرق إليه الباحث فيما يخص الجانب الصوتي،

فعلى ما يبدو أنه قد وُفّق فيما كان يرمي إليه، وكان تحليله يتّسِم بالدقة نوعاً ما. وممّا يؤخَذ على الباحث هو أنه في كل قسم مِن أقسام الحروف، لم يدرس إلا آيتين أو ثلاث منها على سبيل المثال، ولم يتطرق إلى كل ما جاء في السورة مِن ظواهر تسترعي الانتباه فيما يخص هذا الجانب. ومن ميزات هذه الرسالة هي نظرة الكاتب النقدية الوصفية في دراسته لهذه السورة المباركة.

ـ «سورة الواقعة؛ دراسة أسلوبية»؛ رسالة ماجستير للباحث بلال سامي أحمود الفقهاء ( ). فتناول الباحث في الفصل الأول السورة وماهية الأسلوبية؛ وفي الفصل الثاني قام بتحليل المستوى الصوتي للسورة؛ وفي الفصل الثالث قام بتحليل المستويين الصرفي والنحوي؛ وفي الفصل الأخير تناول المستويين البياني والبديعي بالدرس والتحليل. وفيما يخصّ الجانب الصوتي، فحاول الباحث أن يربط تكرار أقسام الحروف بالمعاني المطروقة في السورة وذلك عن طريق إحصاء كلّ ما جاء في السورة مِن أقسام الحروف في السورة المدروسة، إلا أن دراسته اتسمّت بالكلية ونظرت إلى السورة ونسبة تكرار أقسام الحروف فيها بصورة كلية. وكان الباحث في دراسته هذه معتمداً على المنهج الإحصائي.

ـ «التحليل الصوتي للنص؛ بعض قصار السور نموذجاً»؛ بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير للباحث مهدي عناد أحمد قبها ( ). قسّم الباحث دراسته إلى ثلاثة فصول: في الفصل الأول تطرّق إلى عوامل قوة الأصوات وضعفها في النص؛ وفي الفصل الثاني اهتم الباحث بأثر عوامل القوة والضعفي الأصوات؛ حيث تكلم فيه عن الأثر النطقي والسمعي والموسيقي والدلالي للأصوات. وأما الفصل الأخير فقد كان تطبيقياً وحلل فيه بعض قصار السور تحليلاً صوتياً معتمداً في ذلك على المنهج الإحصائي.

ـ «البنية الصوتية في شعر عبد الناصر صالح»؛ بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير للباحث إبراهيم مصطفى إبراهيم رجب (-)، وافتتح الباحث دراسته بتمهيد تطرق فيه إلى مفهوم البنية الصوتية، وفي الفصل الأول درس الباحث استيحاء دلالة الأصوات والمقاطع والنبر والتنغيم. وكانت الفصول التالية تطبيقية؛ درس فيها الباحث دلالة الأصوات والنبر والتنغيم في شعر عبد الناصر صالح؛ محاولاً إيجاد الصلة بينها وبين المعاني المطروقة في كل موضع تمّ استخدامها، معتمداً في ذلك على إحصاء أقسام الحروف.

ـ «سورة نوح عليه السلام؛ دراسة أسلوبية دلالية في مستوى الصوت والصرف» للباحثَين: دانش محمدي ركعتي وعليرضا محمدرضايي ( ). وفيما يخص المستوى الصوتي، اهتمت الدراسة بأقسام الحروف ونسبة ترددها في السورة، وأيضاً المقاطع وأقسامها، إلا أن هذه الدراسة قد نظرت إلى السورة وأقسام الحروف فيها نظرة كلية. وغيرها من الدراسات المتشابهة إلا أنّ الباحث لم يعثر على دراسة اهتمت بهذه السورة من هذا المنظار.

٤ـ تعريف عام بسورة يونس عليه السلام

قال الرازي في افتتاح كلامه عن هذه السورة: إنّها **«مكيّة، إلا الآيات: ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنيّة، ... [و]عن ابن عباس رضي اللّه عنهما: أن هذه السورة مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾** (يونس ١٠: ٤٠)، **فإنها مدنية نزلت في اليهود»** (١٤٢٠هـ.ق، ١٨٣). **وقال ابن عاشور: «هي مكية في قول الجمهور. وهو المروي عن ابن عباس في الأصح عنه»** (بلا تا: ٥). وأما بخصوص الجوّ العام الذي نزلت فيه السورة، فإنها نزلت بعد سورة الإسراء. وقد حَمي الجدل من قِبَل المشركين حول صدق الوحي وحول هذا القرآن وما فيه من التسفيه لعقائدهم، والتنديد بجاهليتهم، والكشف عما في كيان هذه الجاهلية من تناقض واضح. تناقض بين ما يعتقدون من أن اللّه ـ سبحانه ـ هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبّر المتصرّف في كلّ شيء، القادر على كلّ شيء، وبين ما

يدّعونه للّه سبحانه من الولد، حيث كانوا يدّعون أن الملائكة بنات اللّه سبحانه، ويتخذونهم شفعاء عنده تعالى، ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقدي من آثار في حياتهم؛ وفي أوله ما كان يزاوله الكهان والرؤساء فيهم من تحريم و تحليل في الثمار والأنعام؛ وجعل نصيب منها للّه ونصيب لآلهتهم المدعاة! ... نزلت السورة في مثل هذا الجو (سيد قطب، هـ.ق، ص).

وبما أنّ هذه السورة سورة مكية فإنها تتمحور على بيان حقيقة الألوهية والعبودية. فقال صاحب *الظلال* في توضيح ذلك: إن **«القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس. أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة كقضية الوحي، وقضية الآخرة، وقضية الرسالات السابقة فقد جاءت في صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى»** (المصدر نفسه، ص).

٥ـ الأسلوبية، تعاريفها وماهيتها

يقول ابن منظور معرّفاً بالأسلوب: **«ويقال للسطر من النخيل: أسلوبٌ، وكل طريق ممتدٍ فهو أسلوب، والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب ... يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه، وإن أنفه لفي أسلوب، إذا كان متكبراً»** (ابن منظور، بلا تا، ذيل "سلب"). وأما بخصوص المفهوم الاصطلاحي للأسلوبية ومجال عملها وتعاريفها وغايتها، فالميدان رحبٌ واسعٌ، بحيث يصعب تحديد إطارٍ خاصٍ له. والسبب وراء هذا الأمر، على الأرجح، يرجع إلى سعة الميادين والمجالات التي باتت هذه اللفظة تُطلق عليها. فلفظة الأسلوب[1] **«مشتقة من الأصل اللاتيني للكلمة الإنجليزية الذي يعني القلم، وفي كتب البلاغة اليونانية القديمة كان الأسلوب يعَدّ إحدى وسائل إقناع الجماهير، فكان يندرج تحت علم الخطابة وخاصة الجزء الخاص باختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال»** (أبوالعدوس، هـ.ق، ص). وجاء أيضا في تعريف الأسلوب أنه **«الطريقة التي يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه، والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها، إذ يختار المفردات ويصوغ العبارات، ويأتي بالمجاز والإيقاع وذلك قصد التعبير بهذه الطريقة عن قناعاته ووجدانياته، والقصد من إيراد الكلام في نسق معين هو التأثير في المتلقي الذي سيشارك المرسَل أفكاره بعد اقتناعه بالفكرة والأسلوب»** (الشايب، ه.ق، ص)، فعلى أساس هذا التعريف يخرج ما يصدر عن المرسَل من تعابير وألفاظ عفو الخاطر ودون انتقاء.

إذن **«فالأسلوب، طريقة الكاتب في التعبير عن موقف ما، وتتم الإبانة من خلال هذا الموقف عن الشخصية الأدبية لهذا الكاتب المنشئ وتفردها عن سواها في اختيار المفردات وتأليفها وصياغة العبارات ونظمها»** (تاوريريت، م، ص). فالأدباء في مواجهة موقف واحد يلجأون إلى تعابير وأساليب مختلفة، وهي التي تكشف الستار عن عقلية صاحبها ونظرته لذلك الموقف والحياة بصورة أعم. وفي الواقع هذه التعابير أو بصورة أدق هذه اللغة المستخدمة هي الأداة الوحيدة التي توصلنا إلى عالم الأديب ونظرته إلى الحياة؛ فعلى هذا الأساس، يمكن القول أن اللغة هي المفتاح الرئيسي لاقتحام عالم النص، إذ **«تتفق كل الاتجاهات الأسلوبية على أن المدخل في أية دراسة أسلوبية ينبغي أن يكون لغوياً، فالأسلوبية تعني دراسة النص الخطاب الأدبي من منطلق لغوي»** (سليمان، هـ.ق، ص). فالظواهر اللغوية في النص هي المنفذ الوحيد للولوج إلى عالم النص لكشف مميزاته الجمالية والإبداعية والتعرّف على عقلية صاحبه ووجدانياته ونظرته للحياة.

1.Style

وهكذا تبدو أهم سمات المنهج الأسلوبي هي **«استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص والظواهر المميزة التي تشكّل سمات خاصة فيه، ثم محاولة التعرّف على العلاقات القائمة بينها وبين شخصية الكاتب، الذي يشكّل مادته اللغوية وفق أحاسيسه ومشاعره التي تجعله يلحّ على أساليب معينة ويستخدم صيغاً لغوية تشكل في مجملها ظواهر أسلوبية لها دلالتها في النص الأدبي»** (عودة، م، ص).

٥ـ١ـ البناء الصوتي للكلمات

مما لا شك فيه أنّ دراسة النص الأدبي من منظار البنية الصوتية والإيقاعية تُعَدُّ من أهم الجوانب المطروقة لدى الدراسات الحديثة بشكل عام والدراسات الأسلوبية بشكل خاص. هذا لأن التحليل الصوتي لمثل هذه النصوص يساعد كثيراً في فهم طبيعتها وكشف الجوانب الجمالية فيها. ومقولة "الشعر ينقَل قبل أن يفهَم"، دلالة واضحة على أهمية هذا الجانب لدى علمائنا وإسهامه في المعنى. **«يعتبر علماء اللغة المحدثون دراسة الأصوات أول خطوة في أيّ دراسة لغوية، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة، ونعني بها الصوت»** (عمر، م، ص). فهذه الدراسات ترى أن في اختيار الأديب لأحرف خاصة وأصوات معينة علاقةً وثيقة الصلة مع نفسيته وأحاسيسه وعالمه بشكل عام؛ فـ**«ليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وهذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً أو شدة»** (الرافعي، هـ.ق، ص).

ولكن قبل البدء في تحليل أصوات السورة لا بدّ لنا من الإشارة إلى أننا في تحليلنا هذا، اعتمدنا على اللفظ المنطوق لا المكتوب وافتتحنا تحليلنا للسورة[1] بالأصوات المجهورة والمهموسة.

٥ـ١ـ١ـ الجهر والهمس في الأصوات[2]

جاء في تعريف الأصوات المجهورة: أنّه **«قد يقترب الوتران الصوتيان بعضهما من بعض في أثناء مرور الهواء وفي أثناء النطق، فيضيق الفراق بينهما بحيث يسمح بمرور الهواء ولكن مع أحداث اهتزازات وذبذبات سريعة منتظمة لهذه الأوتار، وفي هذه الحالة يحدث ما يسمى بالجهر... . فالصوت المجهور إذن هو الصوت الذي تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ...، والأصوات الصامتة المجهورة كما ننطقها اليوم هي: ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن والواو في نحو (ولد، وحوض)، والياء في نحو (يترك، و بيت)»** (بشر، م، ص).

وأما ما قيل في تعريف الأصوات المهموسة فهو أنه **«قد ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض في أثناء مرور الهواء من الرئتين، بحيث يسمحان له بالخروج دون أن يقابله أي اعتراض في طريقه، ومن ثمّ لا يتذبذب الوتران الصوتيان. وفي هذه الحالة يحدث ما يسمى بالهمس ...، إذن المهموس هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ...، والأصوات المهموسة كما ينطقها المختصّون في اللغة العربية اليوم هي: ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك ه»** (المصدر نفسه، ص). وبالنسبة إلى انتشار هذه الحروف وتوزيعها في السورة، فجليّ أنّ السهم الأكبر كان من نصيب الأصوات المجهورة، فقد سجلّت أصوات الجهر حضوراً، في حين أن أصوات الهمس لم يتعدّ حضورها مرة، أي تكررت الأصوات المجهورة بنسبة / أكثر من الأصوات المهموسة، وهذا طبيعي إلى حد ما في اللغة العربية؛ **«فالكثرة الغالبة من الأصوات اللغوية مجهورة. ومن الطبيعي أن تكون كذلك وإلا فقدت اللغة عنصرها الموسيقي ورنينها الخاص الذي نميّز به الكلام من الصمت والجهر من الهمس والإسرار. فالحنجرة هي أداة الصوت الأساسية وما يتكوّن في غيرها من أصوات إنسانية لا يكون كلاماً مسموعاً واضحاً ذا درجات موسيقية منسجمة يمكن ضبطها وقياسها»** (أنيس، بلا تا، ص). فإنّ السياق هو الذي قد استدعى حضور مثل هذه الأصوات،

---

١. اعتمد الباحث في أغلب تقسيمات الحروف في هذه الدراسة على كتاب *علم الأصوات* لكمال بشر.

٢. وبخصوص مرات تكرار أقسام الحروف في الآيات، فلقد تمّ إحصاؤها في كل آية مِن آيات هذه السورة المباركة، إلاّ أن المجال لا يسمح لنا بنقلها كلها، فسنكتفي بنقل نسبة تكرار أقسام الحروف في آيات خاصة عند الضرورة.

ولمَ لا؟! والكلام عن موضوع ذي بالٍ وهو الوحي ومنكروه، والذين ينكرونه «**إنما يفعلون ذلك لأن تصوراتهم عن أمور كثيرة مغلوطة ...، وهذه الآيات تناقش هؤلاء فإنها تصحح كل المفاهيم التي تؤدي إلى إنكار الوحي**» (الحوي، هـ.ق، ص)، والأهم من هذا أنّ «**القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كلّه هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس**» (سيد قطب، هـ.ق، ص). فمثل هذه المواضيع ومناقشتها تحتاج إلى أصوات مجهورة واضحة تسمعها كل أُذُنٍ، فالأصوات المهموسة لا تناسب المقام، حيث قيل عنها: «**أقلّ الأصوات وضوحاً في السمع هي الأصوات المهموسة**» (بشر، م، ص). ولكن وإن كانت الأصوات المجهورة استحوذت على أغلبية أرجاء السورة بالنسبة لنظيرتها المهموسة، إلا أنّ هذا الاستحواذ ينقص ويزيد، فسنشير إلى أهمّ هذه المواضع في السورة.

تبدأ السورة بالحروف المقطعة التي كانت ولا تزال مُثار حيرة للمفسرين، حيث أقوى الأقوال فيها: «**أنها تدل على اسم من أسماء اللّه، أو صفة من صفاته، أو أنها أسماء للسُور التي استهلّت بها، أو أنها إشارة إلى التحدي والإعجاز، أو أنها للتنبيه بين يدي المعاني، أو أنها مفاتيح لجرس السورة ونغمتها، أو أنها مفاتيح لفهم الوحدة القرآنية، أو أنها إشارة إلى وجود نسبة معينة لهذه الحروف في سورها ولا يمنع أن يكون ذلك كله مراداً من الاستفتاح بها**» (الحوي، هـ.ق، ص). ومن ثمّ تتطرق الآية إلى القرآن وما يحتويه من حكمة وإعجاز، بحيث لا يمكن أن يعتريه أدنى شك. فالأصوات في الآية تميل إلى الهمس أكثر منها إلى الجهر، بذلك نلاحظ حضوراً فعالاً للأصوات المهموسة، بحيث بلغ عددها ثماني مرّات، في حين أنّ الأصوات المجهورة لم يتخطَّ حضورها عشر مرّات، وهذه النسبة متقاربة جداً ونادرة، والتي لا نكاد أن نراها في السورة كلها، ولمَ لا؟ والآية تلخيص لكلّ ما تحتويه السورة، «**فالآية الأولى في السورة تذكر حكمة الكتاب، وذلك يؤكد أنه لا ريب فيه، وأنه هدى يجب أن يهتدي الناس به، فهذه الآية التي هي مقدمة السورة تشير إلى مضمون السورة**» (المصدر نفسه، ص). لذا فهي بحاجة إلى التعمّق والتأمّل والروية، فمثل هذا المقام تكون الحاجة فيه إلى أصوات الهمس أشدّ وآثر، كما أنّه لا يجب أن ننسى أنّ الآية فاتحة سورةٍ تُعَدُّ من السور الطوال في الذكر الحكيم، ولا يناسب المقام في مثل هذه السور أن تكون فاتحتها ذات جرس قوي وأصوات مجهورة قوية. ولكن ما إن اجتزنا هذه الآية بكلماتها المهموسة الخافتة ونبضها الهادئ الرزين حتى نُفاجأ بالآية التالية لها وهي: ﴿**أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ**﴾، حيث كانت الغلبة فيها لأصوات الجهر، إذ بلغ تكرارها ستين مرّة مقابل ثماني عشرة مرة لأصوات الهمس؛ أي تكرارها يفوق أصوات الهمس ثلاثة أضعاف.

فالقرآن الكريم في مقام الحديث عن موضوع ذي بالٍ، ألا وهو موضوع الرسالة وبعثة الرسول ﷺ. و«**الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إيحاء اللّه إلى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوة القرآنية**» (الطباطبايي، هـ.ق، ص). تعجب المشركون من كون الرسول الذي أُرسل إليهم رجل منهم، ﴿**يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشي فِي الْأَسْواقِ**﴾ (الفرقان :)، وهو يتيم أبي طالب، ولم يكن مَلَكاً. فالموضوع كان محل جدل ونقاش كبير عند المشركين من الناس، والذين تعجبوا من كون الرسول هو يتيم أبي طالب الذي لم يؤتَ سعة من المال، ولمّا أراد اللّه تعالى أن يثبت بطلان ما هم عليه من جهل وضلالة، لم يأتِ إلا بأصوات الجهر التي تتمتّع بوضوح سمعي وطنين عالٍ. فالموضوع يتعلق بصميم الإسلام والتعجب كلّ التعجب ممّا يقولون، فالسياق بات في أمسّ حاجة إلى أصوات الجهر الواضحة الجلية.

وأما الآية الرابعة ففيها حديث عن المعاد وما يتعلق به من أمور، وجزاء كلّ واحد على أساس عمله في الدنيا، ﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ**

وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾، فالصالح سيحظى بالنعيم، والطالح سيلقى سعيراً. فقد «**وقع أمرهم بعبادته عقب ذكر الجزاء إنذاراً وتبشيراً، فالجملة كالدليل على وجوب عبادته، وهي بمنزلة النتيجة الناشئة عن إثبات خلقه السماوات والأرض لأن الذي خلق مثل تلك العوالم من غير سابق وجود لا يعجزه أن يعيد بعض الموجودات الكائنة في تلك العوالم خلقاً ثانياً**» (ابن عاشور، بلا تا، ص). والمعاد، بلا شك، هو من أهم أركان الإسلام الأساسية. فكان من اللازم جداً أن يؤتَى بكلماتٍ ذات دويّ وذات جرس عالٍ، بحيث تقرع كلّ أذُن، علّها تؤثّر فيها كثيراً أو قليلاً وتُوقضها من غفلتها وعمايتها.

وتمضي السورة بسياقها المتزّن الرصين بهيمنة نسبية لأصوات الجهر حتى نصل إلى الآية السادسة، وهي: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾، حيث تزيد نسبة أصوات الهمس عمّا كانت عليه، إذ بلغ عدد أصوات الهمس تكراراً مقابل تكراراً للأصوات المجهورة، أي كانت النسبة . لصالح المجهورة. وهذه نسبة عالية في اللغة العربية، كما ذُكر؛ والسبب في ذلك أنّ الآية تسرد لنا أحاديث عن الظواهر الكونية بغية التأمل، حيث تطوف بالإنسان في «**ملكوت اللّه، ليتعرّف على مواقع عظمته في خلقه، وعلى مظاهر نعمه في الحياة، فتتجسد العظمة في عقله، لتتحول إلى إيمان في قلبه، وتتمثل النعمة في عينيه، لتتحرك وعياً في روحه**» (فضل اللّه، هـ.ق، ص)، وهذا كلّه للدلالة على ربوبيته لأولي الألباب. إذن، الآية في مقام التنبيه والتذكير على مظاهر ربوبية اللّه الواحد الأحد للذين يتمتعون بموهبة الحكمة والتأمل؛ فلا يحتاج المتكلم إلى الجهر بالصوت، "فالعاقل تكفيه الإشارة"؛ فالمتكلم الحكيم عندما يخاطب الجُهلاء مِن الناس، يلجأ إلى شتّى الطُرق لكي يتدبّروا في قوله ويعوهُ، ومِن هذه الطُرُق، رفعُ الصوتِ والجهَر به؛ علّ هذه الأصوات المجهورة بقوتها ووضوحها السمعي تخترق أذانهم الصَّمّاء وتَصُبُّ جامَ تأثيرها عليهم، إلا أن هذه الآية تُخاطب مَن له عقلٌ سليم، فلا يحتاج المتكلم معهم إلى بذل الجهد لكي يستوعوا ما يرمي إليه. فنظراً لكون المقام، مقام الحديث عن المظاهر الكونية للاتعاض، فيبدو أنّ مثل هذه الحروف أكثر تناسقاً مع ما ترمي الآية إليه.

وما إن انتهت الآية السادسة بأصواتها المهموسة، والتي تختص بالعقلاء والنبهاء من الناس حتى بدأت الآية التالية بأصواتها المجهورة الواضحة، وهي قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ**﴾، والتي بلغ عدد تكرار الأصوات المجهورة واحد وأربعين مرة، في حين أنّ أصوات المهموسة تكاد تختفي في الآية، حيث بلغ مرات تكرارها ثماني مرات فحسب، أي تكررت أصوات الجهر بنسبة . أكثر من أصوات الهمس. فلا عجب في ذلك؛ فالآية تخاطب الغافلين الذين غرتهم الحياة الدنيا، فهم لا يرجون لقاء اللّه سبحانه ولا يتوقعونه أصلاً لغفلتهم المستولية عليهم، ﴿**وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا**﴾ من الآخرة، ويؤثرون القليل الفاني على الكثير الباقي. ففي مثل هذا المقام يحتاج المتلكم الحكيم أن يتكلم بأصوات واضحة، علّها تُجدي نفعاً وتؤثّر في هؤلاء الغفلة اللاهين.

وأما الآية السادسة عشر ففيها من الإيقاع الهادئ الرزين ما فيها، والتي بواسطة استخدامها للأصوات التي تحظى بأقلّ نسبة من الوضوح تشدّ الإنسان إليها شدّاً، فتأمّلْ معي في هذا المقطع من الآية بالذات ﴿**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾، وما به من رزانة وجمال، وهو ما يناسب السياق والذي يدعو إلى التعمق والتأمّل، فـ«**من كان له أدنى مسكة من عقل إذا تأمل في أمره صلّى اللّه عليه وسلم وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشؤون ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون ولا مخالطة للبلغاء في المحاورة والمفاوضة ... ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل ذي أدب وحيرت بلاغته مصاقع العرب ... لا يبقى عنده اشتباه في أنّه وحيٌ منزل من عند اللّه جلّ جلاله**» (الآلوسي، هـ.ق، ص). فهذه الأمور كلها مما تدعو الإنسان إلى التعقل؛ كيف يعقَل أن يكون مثل هذا الكتاب الذي يشُعُّ نوراً بفصاحته وبلاغته مِن قِبَلِ يتيم أبيطالب الأمي؟! ولهذا نرى أنَّ الآية بلغ تكرار أصوات الهمس فيها عشرين مرة

مقابل أربع وثلاثين لأصوات الجهر؛ أي تكررت أصوات الجهر بنسبة . أكثر من الأصوات المهموسة. وهذه نسبة عالية بالنسبة للأصوات المهموسة، وذلك لأنّ الآية تدعو إلى التأمل. وعلى ما يبدو ـ وكما اتّضح لنا غير مرةٍ في هذا البحث ـ الأصوات المهموسة أكثر تماشياً مع مثل المقام الذي فيه دعوة إلى التعقل والتدبّر.

ومما يمكن الإشارة إليه هو ما لاحظه الباحث في الآية الثانية والعشرين، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾، حيث انقسمت إلى قسمين؛ القسم الأول من ابتداء الآية إلى قوله تعالى: ﴿**فَرِحُوا بِهَا**﴾، وسجّلت أصوات الجهر في هذا المقطع من الآية تسعة وثلاثين حضوراً مقابل واحد وعشرين حضوراً للأصوات المهموسة[١]، أي كانت نسبة تكرار أصوات الهمس عالية نسبياً. ولا غرو في ذلك؛ فالقرآن في مقام الحديث عن أحوال الناس وهم يسيرون في البحر فرحين مطمئنين؛ فالرياح مؤاتية والبحر هادئ ولا يوجد ما يعكر تلك الصفوة، ولكن سرعان ما تنقلب الموازين رأساً على عقب، فتشتدّ الرياح ويهيج البحر بأمواجه العاتية وتزول تلك الصفوة والدعة والراحة، والمتلقي يحسّ بهذا الاضطراب والانقلاب وهو يقرأ أو يسمع، فتتصاعد نبضات القلب، وهنا تتزايد الأصوات المجهورة، بحيث بلغ تكرارها ثماني وخمسين مرة وتتقلص أصوات الهمس لدرجة أنها لم تجتز ثلاث وعشرين مرة، وهذا يختلف كثيراً عما كانت عليه الأمور في القسم الأول من الآية.

والآيتان الأربعون والأربعون والواحدة: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۞ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، فقد بلغت مجموع الحروف المجهورة فيهما تكراراً مقابل تكراراً لأصوات الهمس؛ أي تكررت حروف الجهر بنسبة . أكثر من حروف الهمس، وربّما يرجع السبب إلى أن اللّه سبحانه وتعالى ذكر في الآيتين، المكذبين بالقرآن وبيّن حقيقة اعتقادهم تجاهه. وبعدها أُمِر النبي ﷺ بالتبرء مما يعملونه. وفي هذا القول تهديد للمكذبين، حيث خاطب اللّه تعالى: «**نبيّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وإن اصرّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجّة ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ ...، حقّاً كان أو باطلاً ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم**» (كاشاني، هـ.ق، ص). فقد تمّ فيها الإفصاح والجهر بما تكمن صدور المشركين، والذي كانوا يظنونه خافياً لا يبين بعبارات تموج بأصوات الجهر الواضحة، وحين أريدَ تهديدهم تمّ توظيف نفس الأصوات لتبيين هذا التهديد وتصويره على أتمّ وجه.

والآية السابعة والخمسون قوله تعالى: ﴿**هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾، وهي من الآيات التي كانت نسبة أصوات الجهر فيها عالية، إذ بلغ ترددها مرة، مقابل تكرارات لأصوات الهمس؛ أي أصوات الجهر أضعاف أصوات الهمس، وقد تطرقت الآية إلى الإحياء والإماتة واختصاصهما باللّه الأحد، وأنّ المعاد إليه لا محيص عنه. فجاءت العبارات في الآية صريحة واضحة بأصوات مجهورة تنفي عن طريقها ما كان يعتقده المشركون ولا تدع مجالاً للشك أو الريب في اللّه ووحدانيته.

---

١. كانت مرات تكرار حروف الجهر والهمس في الآية على النحو التالي: المجهورة: ب:٧، م:١٢، و(غير صائت):٨، ذ:٣، ظ:١، د:٣، ن:٢٥، ل:١٥، ر:٩، ض:٠، ز:٠، ج:٥، ي (غير صائت):٧، ع:٢، غ:٠. والمهموسة: ت:٦، ث:٠، ح:٦، خ:٢، س:١، ش:٢، ص:٢، ط:٢، ف:٥، ق:٠، ك:٦، هـ:١١.

ولا ضير من الإشارة إلى نكتة ظريفة في خصوص تردد هذه الأصوات في الآية السابعة والستين، وهو أنّ اللّه سبحانه حين تكلم عن الليل وبيّن ما فيه من هدوء وسكينة وراحة، كثُرت الحروف المهموسة في كلامه الحكيم، إذ قال: ﴿**جَعَلَ لَكُمُ الْلَيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**﴾، حيث تكررت الأصوات المهموسة في قوله ﴿**لِتَسْكُنُوا فِيهِ**﴾، خمس مرات مقابل تكرارين فقط لأصوات الجهر، وهي التي تكون أعلى نسبة في الكلام، ولكن حين حديثه تعالى عن النهار وما فيه من نشاط وحركة وظهور، زادت الحروف المجهورة في الكلام، حيث قال تعالى: ﴿**وَالنَّهارَ مُبْصِراً**﴾، فتأملْ معي في لفظة ﴿**مُبْصِراً**﴾، حيث تكررت الأصوات المجهورة فيها أربع مرات، مقابل حرف همس وحيد!

وتمضي السورة بإيقاعها الهادئ السَلِس إلى أن نصل إلى الآية السابعة والسبعين، حيث تقلصت نسبة تكرار أصوات المجهورة بالنسبة إلى الحروف المهموسة، إذ إنها لم تتكرر إلا عشرين مرة مقابل ستة عشر حضوراً لأصوات الهمس، أي كادت تتعادل نسبة التكرار بينهما، حيث قال تعالى فيها: ﴿**قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**﴾، فآيتها السابقة تتحدث عن مجيء الحق من عند اللّه سبحانه، ومع كون أنّ هذا الحق من جانب اللّه تعالى إلا أنهم ظلّوا يصرّون على تكذيبهم له ووصفهم له بالسحر ويعلنون ذلك بصراحة، ففيها تسير نسبة الحروف الجهر والهمس على الوتيرة المعهودة نفسها في المقطع، ولكن في هذه الآية تنقص هذه النسبة، فنبي اللّه موسى عليه السلام يستنكر قولهم الشنيع هذا ويتعجب منه؛ فكأنه يقول لهم: أتقولون للحق لما جاءكم: هذا سحر؟ أسحر هذا؟! فكأنّ الله تعالى قد أراد، عن طريق عدم تكثيف حروف الجهر إضافة إلى الاستنكار والتعجب، أن يقول لهم بأن هذا الحق ليس سحراً، فهو أمر واضح وضوح الشمس. فما أبعد الحق هذا عن ذاك الذي وصفتموه به! فلا يجب أن تتفوهوا بمثل هذه الأقاويل وأن تجروها على ألسنتكم علناً! وأيضاً من الأمور التي تجدر الإشارة إليها في هذه الآية هو الحضور المميز لصوت الحاء، ومن إيحاءات هذا الصوت هو أنّه «**إذا لفظ مشدداً مفخماً عالي النبرة، أوحي صوته بالحرارة، وبأصوات فيها شيء من الحدة، وبمشاعر إنسانية لا تخلو من الحدة والانفعال**» (عباس، م، ص)، وهذا ما يمكن أن تستشعره في كلام نبي اللّه موسى عليه السلام وهو يخاطب القوم؛ فكلامه يوحي بمشاعر إنسانية وفيه من الانفعال والحدّة ما فيه! فجاء هذا الصوت بإيحاءاته هذه متناغماً أيما تناغم مع أغراض الآية!

ثم في الآية الثامنة والسبعين يعلنون بوضوح أن تكذيبهم للحق الذي جاء به موسى عليه السلام وهو من عند اللّه تعالى، ورميهم له بالسحر وما شابه ذلك من أمور ليس سببا حقيقيا لتكذيبهم إياه، بل الأمر وما فيه هو الخوف على زوال معتقداتهم الموروثة والسلطة الحاصلة إثرها، قال تعالى: ﴿**قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ**﴾، نعم، الخوف على «**معتقداتهم الموروثة، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي. وهو الخوف على السلطان في الأرض، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة. إنها العلة القديمة الجديدة، التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات، وانتحال شتى المعاذير، ورمي الدعاة بأشنع التهم، والفجور في مقاومة الدعوات والدعاة**» (سيد قطب، هـ.ق، ص). ففي هذه الآية تزيد نسبة تكرار الحروف المجهورة نسبياً، حيث تكررت فيها أربعين مرة مقابل ثلاث عشرة مرة لأصوات الهمس، أي تكررت بنسبة . أكثر من أصوات الهمس. وتزيد نسبة أصوات الجهر في الآية الثامنة والثمانين بالنسبة إلى الآيات السابقة، إذ قال تعالى فيها: ﴿**وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ**﴾، حيث وصل تردد حروف الجهر فيها إلى ست وسبعين مرة مقابل ثلاث وعشرين مرة لأصوات الهمس، أي تكون نسبة تكرار أصوات الجهر . أكثر من أصوات الهمس. فالآية فيها حديث قد جرى بين كليم اللّه وربّه؛ حديث مَن طالما أطال

الحديث مع ربّه، فلم يتردد في البوح عمّا يجول في خاطره؛ فوجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب الضعيفة. نعم، هنالك يخاطب موسى عليه السلام ربّه ويقول: إنّ النعمة الوافرة التي يحظى بها فرعون وحاشيته هي من أسباب إغواء القوم وإعراضهم عن طريق الحقّ، فيدعو: ربّنا اذهب بهذه النعمة، وفي القسم الثاني من الآية فيه دعاء من استسلم ويئس؛ فقد خاض مع هؤلاء القوم مشواراً فيه من الأحداث العِجاب ما فيه، فلا أمل فيهم، ولهذا لم يتوانَ موسى عليه السلام في طلب نزول العذاب جهراً وعلناً، ولهذا نرى تكثيف توظيف أصوات الجهر في الآية.

والآية الثانية والتسعون أيضاً من الآيات التي كثُرت فيها نسبة تكرار أصوات الجهر بثمانية وثلاثين تكراراً مقابل عشرة مرة لأصوات الهمس؛ أي يكون تكرارها ما يقارب أربعة أضعاف لأصوات الهمس، وفيها: ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ**﴾، فالآية تتناول كيفية نجاة فرعون وجَعْله آية للاعتبار فـ«**لا تأكله الأسماك، ولا يذهب منكراً مع التيار لا يعرف للناس. ذلك ليدرك من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك**» (المصدر نفسه، ص). فاللّه سبحانه وتعالى يريد أن يبرز مصير فرعون الباغي بصورة جلية؛ فلا تصلح في مثل هذا السياق الأصواتُ المهموسة الخافتة بل يجب أن تزيد نسبة أصوات الجهر فيه، حتى يكون هذا المصير ظاهراً جلياً أمام الناظرين.

وأما الآيات الأخيرة فقد قلّ حضور الأصوات المجهورة قليلاً بالنسبة إلى المقاطع الأخرى. ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك، فالسورة، كما ذكرنا أكثر من مرة، من السور الطوال فهي في الغالب حافلة بالأصوات التي تميل إلى الجهر أكثر منها إلى الهمس، وهنا وصلت السورة إلى نقطة النهاية، ففي مثله كان من اللائق أن تميل الحروف إلى الهمس والخفوت قليلاً؛ ففيه إيذانٌ بأنّ السورة أوشكت أن تنتهي، وهذا الأمر يظهر جلياً في الآية الأخيرة، حيث لم تتكرر أصوات الجهر فيها إلا إحدى وعشرين مرة مقابل خمسة عشر حضوراً لأصوات الهمس، أي تكررت المجهورة بنسبة . أكثر من المهموسة. وهذا ما يراعيه القرّاء عادة في نهاية تلاوتهم، حيث يميلون إلى التخفيف من حدة صوتهم ووضوحه. إضافة إلى ذلك أنّ في هذا القول، وبعد هذا الحديث المفصّل الذي يدور في أغلب الآيات حول الشك بالقرآن ومناقشة المشركين في ذلك، إتمام للحجة؛ فقيل ما قيل، فالذي يتعقّل ويتدبّر ويحظى بفطرة سليمة، يقتنع بكلّ هذه الحجج الدالة على صدق الكتاب وصدق الرسالة، وأمّا من لم يهتدِ، فلا أمل يرجَى منه. ومن ثَمَّ يخاطب اللّهُ رسولَه بنصائح ويأمره بالصبر حتى ذلك الوقت تقتضيه حكمته. فلهذه المواضيع وبالأخص النصائح أيضاً سهم في التخفيف من سطوة الأصوات المجهورة.

٥ـ١ـ٢ـ الأصوات الشديدة والأصوات الرخوة والأصوات المتوسطة[١]

تتكون الأصوات الشديدة الانفجارية «**بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبساً تاماً في موضع من المواضع. وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة، فيندفع الهواء مُحدثاً صوتاً انفجارياً. [وهي] ثمانية أصوات: الباء والتاء والدال والطاء والضاد والكاف والقاف والهمزة**» (بشر، م:). وأما الأصوات الرخوة فقد جاءت في تعريفها بأنه «**يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع ويمرّ من خلال منفذ ضيق نسبياً، يحدث في خروجه احتكاكاً مسموعاً ... [وهي]: الفاء والثاء والدال والظاء والسين والزاي والصاد والشين والخاء والغين والحاء والعين والهاء**» (المصدر نفسه، ص).

١. الأصوات المتوسطة هي التي تسمى عند المحدثين الوقفات الانفجارية أو الأصوات الاحتكاكية أو الأصوات البينية.

وهناك أيضا نوع آخر من الحروف لها من الصفات ما لهذه وتلك، وهي التي تعرف بالأصوات المتوسطة أو البينية، فإنّ علماء العربية «**يقصدون بتوسط هذه الأصوات توسطها بين الشديدة (الوقفات) والرخوة (الاحتكاكية)، لانتظامها شيئاً من خواص كل من القبيلين معاً، ومن ثمّ كانت التسمية الأخرى المشار إليها "البينية"... . وينتهي القول بنا أنّ الأصوات المتوسطة التي تحققت في نطقها المعايير التي وضعها سيبويه هي باتفاق الجميع أربعة: اللام والنون والميم والراء**» (المصدر نفسه، ص).

وبالنسبة إلى انتشار الحروف الشديدة والرخوة وتوزيعها في السورة، فيبدو أنّ الغلبة كانت من نصيب الأصوات الشديدة الانفجارية، وإن لم يكن الفارق كبيراً جداً؛ إذ بلغ عدد تكرار الأصوات الشديدة في آيات السورة تكراراً، والأصوات الرخوة بلغت تكراراً. ومما يجدر بالذكر النسبة العالية لحضور الأصوات المتوسطة أو كما تُسمّى عند البعض الأصوات البينية، «**فهذه الأصوات من أقوى الأصوات الصامتة وضوحاً، حيث إنّها تُعَدّ من الأصوات الأنفية والجانبية وهي الميم والنون واللام، وأيضاً حرف الراء الذي يعدّ أكثر منها وضوحاً، كما أثبتته الدراسات الحديثة**» (المصدر نفسه، ص). وهذا طبيعي إلى حدّ ما؛ فالآيات يتمّ فيها التطرق إلى مواضيع ذات أهمية، وهي مسألة الرسالة والنبوة والوحي وما يتصل بها من أمور وقضايا، فلا عجب أن تتزايد الحروف الشديدة الانفجارية في مثل هذا السياق، وأن يكثر حضور الأحرف المتوسطة التي تمتاز بنسبة عالية من الوضوح وهي أكثر الأصوات الصامتة تردداً في الكلام، بحيث تكررت مرة في السورة. وهذه الغلبة فرضت سيطرتها على أغلب الآيات، إلا أنه في بعض الآيات كانت هذه النسبة تنقص وتزيد، وسنشير إلى أهمها.

والآية الأولى، كما ذكرنا، تَلخّصَ مضمون السورة فيها، وهي من الآيات التي تكون نسبة تكرار الأصوات الانفجارية فيها كبيراً، حيث وصل تكرارها إلى تسع مرات مقابل تكرارين فقط للأصوات الرخوة، والأصوات المتوسطة تكررت فيها ثماني مرات. فكأن الشدة في الأصوات ووقعها القوي تُوحي بكبر الموضوع الذي تتمحور عليه الآية. والآية الحادية عشرة من الآيات التي تكون الغلبة فيها للأصوات الرخوة على الشديدة، حيث إنها وإن كانت الغلبة للأصوات البينية فيها والتي تكررت اثنتين وثلاثين مرة، إلا أنّ الأصوات الرخوة سجلّت حضوراً أقوى بستة عشر تكراراً بالنسبة للأصوات الشديدة والتي تكررت ثماني مرات، حيث جاء فيها: ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾.فالموضوع والسياق هو السبب وراء هذا الاختيار، فالظاهر أن المشركين كانوا بسبب غرورهم يحسبون تصرفات اللّه كتصرفات الناس من الاندفاع إلى الانتقام عند الغضب اندفاعاً سريعاً. فمع وجود الأدلة والحجج الواضحة، كانوا يريدون أن يغضِبوا اللّه سبحانه بتكذيبهم النبي ﷺ وطلبهم نزول العذاب عليهم، واعتبروا هذا الأخير الدليل على صدق رسالة محمد ﷺ جاهلين بأنّ اللّه سبحانه بعيدٌ كلّ البعد عن الغضب وبأنّه جعل نظام هذا العالم على الرفق بالمخلوقات واستبقاء كلّ شيء إلى أجله المحتوم. فقيلت هذه الكلمات في مثل هذا السياق الهادئ البعيد كلّ البُعد عن الغضب والانفعال، بأصوات رخوة تدلّ على هذه الطمأنينة والأريحية وتُساهم في تجسيد جوّ تَسُودهُ السكينة والراحة.

والآية الواحدة والأربعون قلّت نسبة الحروف الرخوة فيها، بحيث تكاد تختفي كلياً عن الآية، إذ إنها لم تتكرر إلا ثلاث مرات، مقابل ستة عشر تكراراً للشديدة وثمانية وعشرين تكراراً للبينية، ربّما يرجع الأمر في عدم توظيف الحروف الرخوة في الآية إلى أنَّ المشركينَ - بعد كلّ هذه الحجج والبراهين الواضحة الدالة على صدق الرسالة وإعجاز القرآن الكريم - ظَلُّوا مُصرِّينَ على تكذيبهم، فاللّه سبحانه وتعالى يخاطب رسوله قائلاً: إن اصرّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجّة ﴿**فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ**﴾، حقّاً كان أم باطلاً ﴿**أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ لا تؤاخذون بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم. فلا ينفع مع مثل هذا القوم إلا القوة

والشدة والغلظة في اللفظ والعمل؛ فكل شخص يجزى على أساس عمله في الدنيا. والملاحظ في هذه الآية هو كثرة تكرار الهمزة فيها، بحيث بلغ تكرارها ست مرات، وهذا الأمر ساهم في جلب الانتباه والتنبّه إلى ما يقول النبي ﷺ، فـ«**صوت الهمزة ... يضاهي نتوءاً في الطبيعة، وهو يأخذ في هذا الموقع صورة البروز كمن يقف فوق مكان مرتفع**» (عباس، م، ص).

ومن الآيات التي لفتت الانتباه هي الآية الثامنة والخمسون التي يقول الله تعالى فيها: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾، حيث زادت الحروف الرخوة فيها حتى كادت تصل إلى مرات تكرار الحروف البينية، إذ إنها سجلّت أحد عشر حضوراً مقابل ثمانية تكرارات للحروف الشديدة وستة عشر حضوراً للحروف البينية[١]. وهذا ما لم نعهد في الآيات السابقة. فكما ذُكر أنّ ظلال رحمة ربّك وفضله قد عمّت كلّ لفظة في الآية وقد دعاك اللّه تعالى إلى الفرح والسرور بسبب ما وهبك إياه من نعمة أبدية؛ ألا وهو كتابه المجيد. ففي مثل هذا السياق كثُرت الحروف الرخوة الهادئة الطيّعة التي ساهمت في خلق هذا الجوّ الهادئ المحَبَّب ونشر الفرح والسرور.

وهذا ما نلاحظه أيضاً في الآية الثانية والستين، وهي ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾، حيث تكررت فيها الأصوات الرخوة سبع مرّات، في حين أنّ الأصوات الشديدة الانفجارية لم تتجاوز ثلاث تكرارات، والأصوات البينية الغالبة أيضاً لم تخالف منهجها المعهود، فتكررت أربع عشرة مرة في الآية. فالآية بعد تلك اللمحة الرهيبة في الآية السابقة، تزيل الخوف من قلوب أولياء الله وتؤكد لهم بأنهم سينعمون براحة البال والسكينة، فالخوف والحزن لا يدنوان منهم. والأصوات الرخوة أيضاً لها سهم كبير في تجسيد هذا الجوّ البعيد كلّ البعد عن اضطراب الخاطر وقريبٌ كل القرب من الطمأنينة والهدوء.

والآيتان الرابعة والستون والخامسة والستون أيضاً تجسّدان لنا هذا الجوّ الهادئ الحلو: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾، فلهذا تكررت الأصوات الرخوة فيهما مرة، في حين أنّ مرات تكرار الأصوات الشديدة لم تتجاوز ست عشرة مرة، ففيهما تبشير لأولياء اللّه بحياة هانئة حلوة في الحياة والممات، ويعدهم اللّه بأنّ هذا وعدٌ. والوعد من قِبَل اللّه تعالى لا محالة يتحقق. وفيهما دعوة لعدم الحزن والتحلّي بالطمأنية وراحة البال. والأصوات الرخوة تمّ توظيفها في هذا المقام للإسهام في خلق مثل هذا الجوّ الهادئ الرخيّ. ولصوت الهاء وبالأخص في الآية الرابعة والستين إسهام في ترسيم هذا الجو الهادئ الرقيق وتجسيد هذه البُشرى بهذا الفوز لأولياء اللّه؛ «**فصوته إذا ما غلب عليه طابع الرقة والخفوت؛ أي لم ينطق بغلظة ونبرة عالية، أوحي صوته وهذه الحالة بالمعاني الدالة على الضعف والرقة**» (المصدر نفسه، ص)، وهذا يتّفق ومقام البشارة التي تعدّ من المعاني الرقيقة المحبّبة.

ومما استرعى انتباهنا في هذا المجال هي الآية الثالثة والسبعون، وهي التي يقول الله تعالى فيها: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**﴾، حيث تكررت الأصوات الشديدة فيها سبع عشرة مرة، في حين أنّ الأصوات الرخوة فاقت هذا العدد فوصلت إلى عشرين حضوراً في الآية. والملفت للنظر هو أنّ الأصوات المتوسطة أيضاً لم تكن نسبتها عالية جداً كما كان عليه الحال في أغلب الآيات، إذ إنها لم تتكرر إلا خمس وعشرين مرة. فالناظر في بادئ الأمر يخيّل إليه أن تكون الغلبة للأصوات الشديدة علما بأن الحديث عن تكذيب قوم نوح عليه السلام ووقوع العذاب بهم

١. كانت نسبة تكرارها كما يلي: الأصوات الشديدة: ب:٣، ت:١، د:٠، ط:٠، ض:١، :١، ق:٢، ء:٠. والأصوات الرخوة: ص:٠، ز:٠، س:٠، ش:٠، ذ:١، ث:٠، ظ:٠، ف:٤، هـ:٣، ح:٢، خ:١، غ:٠.

وإغراقهم، في حين أن العكس حصلَ. فالآية وإن كانت تتناول الحديث عن تعذيب القوم المنذَرين، ولكنها ما جاءت في السياق إلا بهدف الاتعاظ بها والاعتبار بمصير مَن كذّب بالرسل. ففيها حديث باختصار عن نجاة نوح عليه السلام ومن معه في الفلك، وهم القلّة المؤمنة وإغراق المكذبين على كثرتهم وجبروتهم. فعلى ما يبدو أنّ اللّه الحكيم يميل في هذا المقام وهو مقام الموعظة والاعتبار، إلى توظيف الحروف الرخوة التي طالما قد اقترنت بمقام يقترن بالهدوء وعدم الاضطراب.

ولأصوات الشدة في الآية الثامنة والسبعين حضورٌ مكثّفٌ أيضاً حيث تكررت عشرين مرة، في حين أن الأصوات الرخوة لم تتكرر إلا أربع مرات والأصوات المتوسطة الواضحة تكررت ست وعشرين مرة. فالآية من هذا الحيث غلبت عليها الأصوات الشديدة المتوسطة. فعلى ما يبدو أنّ السبب وراء ذلك هو أنّ قوم موسى عليه السلام انفعلوا أيما انفعال واشتدّت لهجتهم وغلظت ألفاظهم، وقالوها ملء أفواههم: أتريد أن نترك ما كان يعبد آباؤنا! فهو الخوف على زوال معتقداتهم الموروثة والسلطة الحاصلة إثرها هو ما دفعهم للوقوف في وجه موسى عليه السلام والحق. لذا وفي مثل هذا السياق، كثُرت الأصوات الشديدة الانفجارية لتبين مدى انفعال القوم وغضبهم. ومن الأصوات التي لها حضوراً ملفتاً في هذه الآية صوت الهمزة والكاف، حيث تكررت الهمزة ست مرات كذلك تكررت الكاف فيها أربع مرات. فصوت الهمزة ـ كما قيل ـ يوحي بالبروز والنتوء ويشدّ هذا الصوت انتباه السامعين وهذا يتطابق مع ما أراد القوم والغلظة والشدة في قولهم. وصوت الكاف أيضاً من الحروف الاحتكاكية الشديدة، وهو يوحي **«بشيء من الخشونة والحرارة والقوة والفعالية، ... وأما إذا لفظ بصوت عالي النبرة وبشيء من التفخيم والتجويف، فإنه يوحي بالضخامة والامتلاء والتجميع»** (عباس، م، ص). فجاء هذا الحرف بمواصفاته هذه متناسقاً مع السياق، ويظهر هذا الأمر بوضوح أكبر في لفظة "الكبرياء" التي تشع الحرارة والقوة والضخامة من ألفاظها.

٥ـ١ـ٣ـ أصوات المدّ واللين

قال ابن جني في تعريفه لهذه الحروف: **«فإن اتّسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته، استمرّ الصوت ممتداً حتى ينفذ، فيقضي حسيراً إلى مخرج الهمزة، فينقطع بالضرورة عندها إذا لم يجد منقطعاً فيما فوقها. والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف، ثم الياء، ثم الواو»**[1] (ابن جني، بلا تا، ص)، وقيل فيها أيضاً: **«مرور الهواء من الفم حرّاً طليقاً في أثناء النطق بها، دون مانع أو عائق يقطعه أو ينحو به نحو منافذ أخرى كجانبَي الفم أو الأنف، أو دون تضييقٍ لمجراه فيحدث احتكاكاً مسموعاً»** (بشر، م، ص). وسيتمّ التطرق إلى أهمّ الآيات التي شكلت هذه الأصوات فيها ظاهرة أسلوبية.

وأول ما يلفت النظر هو ما جاء في الآية الأولى، حيث يكون حضور حروف المدّ فيها مكثّفاً، إذ تكررت هذه الأصوات في هذه الآية القليلة الكلمات ست مرات بغض النظر عن الحركات القصيرة. وللألف، بخمس مرات من الحضور، سهم أكبر في هذه الكثافة، كما أن للفتحة بين الحركات القصيرة نسبة أعلى، إذ تكررت في الآية سبع مرات. فالآية فاتحة السورة؛ فكأنّ اللّه تعالى أراد عن طريق التكثيف من حروف المدّ وبالأخص الألف الذي يتمتع بنسبة أعلى من الوضوح، أن يجلب انتباه السامع. والشاهد الدالّ على إرادة جلب انتباه السامعين هو أنّه افتتح السورة بالحروف المقطعة. ومن أسباب افتتاح بعض السوَر بهذه الحروف هو زيادة التنبّه

---

١. أي إنّ الهواء حال نطق أحرف المدّ الثلاثة هذه يمتدّ خلال مجراه ويستمرّ في الامتداد، لا يقطعه شيء ولا يمنع استمراره أي عارض ولا ينتهي هذا الهواء إلا بانتهاء نطق الصوت نفسه.

إلى المعاني. وإضافة إلى ذلك، أنّ الآية فيها تلخيص لمضمون السورة، ففيها دعوة إلى التأمل والتعمّق، ففي كثرة هذه الأصوات وبالأخص الألف اللينة وما تمتاز به من طول الدعوة إلى التأمل؛ فإنها تلفت الأذهان بما تمنح من وقت زمني للتأمل والتفكر.

وسجلت هذه الأحرف في الآية الثانية أيضاً حضوراً قوياً حيث تكررت خمسة عشر مرة، إذ تكرّرت الألف فيها إحدى عشر مرة والواو والياء لكلّ واحد منهما مرتان من الحضور. هذا بالإضافة إلى تكرار الفتحة القصيرة أربعين مرة، وهي نفس الطويلة مع اختلاف في الطول. أضفْ إلى ذلك أنّ حروف اللين وردت مرتين في الآية. فقد تمّ توظيف هذه الأصوات لبيان العجب والدهشة من تعجب المشركين من كون الرسول الموحَى إليه رجلٌ منهم وهو يتيم ابن أبي طالب ولم يكن مَلَكاً؛ ففي مدّ الصوت في هذه الحروف تجسيد للتعجب ومداه من هذا القول.

وكثرت كذلك هذه الحروف في الآية العاشرة، حيث بلغ ترددها فيها خمس عشرة مرة، وسجلت الفتحة الطويلة أي الألف أحد عشر حضوراً، والياء تكررت في الآية أربع مرات، هذا بالإضافة إلى الفتحة القصيرة التي بلغ ترددها خمس وعشرين مرة. فإن الدعاء وتمجيد ذات اللّه تعالى وتعظيمه محور الآية، ﴿**دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**﴾؛ أي دعاؤهم في الجنة تسبيح اللّه وتحية بعضهم بعضاً سلام عليكم كما تحيّيهم بذلك الملائكة وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد للّه ربّ العالمين. وما أكثر حروف المدّ في الدعاء! وهذه الحروف إضافة إلى ما تضفيه على النص من إيقاع موسيقي عذب محَبّب، تساهم في تحقيق الإسماع، فكأنّ المتكلم عن طريق ميزة مدّ الصوت الذي تحظى به هذه الحروف، يريد أن يتأكد من تحقّق الإسماع وتوصيل المعنى. وتأملْ معي في قوله: ﴿**سبحانك**﴾ وما تحسّه حين سماعه من عظمة وإجلال! وكذلك تأملْ في قوله: ﴿**سلام**﴾، فعن طريق مدّ الصوت في الألف اللينة، تستشعر بامتداد هذا السلام وبسطه على كلّ الأرجاء!

وأما الآية الخامسة عشر فقد تكررت هذه الحروف فيها سبع وعشرين مرة، والأصوات اللينة أيضاً حضورها فيها ملحوظ حيث تكررت خمس مرات. فهذا التكثيف قد ساهم في تجسيد المعنى؛ فتأمل في قوله تعالى: ﴿**تُتلَى عَليهِم آياتٌ بَيِنَاتٌ**﴾، فكثرة حرف الألف اللينة التي تحظَى بأعلى نسبة من الوضوح بين الأصوات كلّها، جسّدت هذا الوضوح في آيات اللّه تعالى على أتمّ وجه، والصفة التي تَلتْ "الآيات" لها خير شاهد على هذا الأمر. وبالرغم ممّا تحظى به هذه الآيات من الوضوح، فإنَّ المكذبين أرادوا قرآناً غير هذا القرآن أو استبداله، إذ قالوا: ﴿**ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا**﴾، والألف الموجودة في لفظتَي "قرآن" و"هاذا"، تمّ توظيفها لبيان العظمة الموجودة في القرآن.

وتأملْ في قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً**﴾، وكذلك في لفظة "عُمُراً" في الآية السادسة عشر. فالضمتَان المتتاليتان فيها إضافة إلى ما أضفيا على الكلمة من وقع موسيقي حلوٍ، قد ساهمتا في تجسيد تلك المدة المديدة التي قضاها رسول اللّه ﷺ فيهم بشكل بديع. ولا يفوتنا أنهما جاءتا مقترنتَين مع صوت الراء الذي يعرف بصفته التكريرية، فصفته أيضاً لها سهم كبير في الدلالة على المدة الزمنية الطويلة التي قضاها معهم.

وأما الآية الثانية والعشرون، فعلى ما يبدو أنّ نسبة حروف المدّ وحروف اللين هذه تزيد بشكل ملفت للنظر في هذا القسم من الآية، حيث قال تعالى: ﴿**جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾، فالقارئ وهو يقرأ أو يسمع النصّ، يحسّ بهول الموقف ويرى نفسه معهم يقاسي ما قاسَوه ويشعر بما شعروا به. فلهذه الحروف وجرسها ومدّها في الصوت إسهام كبير في تجسيد هذا الموقف وهوله والخوف الناتج عنه.

والآية السابعة والثلاثون تنفي أن يكون القرآن العظيم بخصائصه المذكورة مفترى، ﴿**وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾، فهو بخصائصه الموضوعية والتعبيرية، وبهذا الكمال في تناسقه، وبنظمه البديع هذا لا يمكن أن يكون مفترى من دون اللّه. فقد ساهمت حروف المدّ واللين على المبالغة في النفي والتأكيد عليه، وقد قيل بخصوص هذه المبالغة في النفي: «**ما كان من شأنه أصلا أن يفترى. فليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجوده هو المنفي. وهو أبلغ في النفي وأبعد**» (سيد قطب، هـ.ق: ص). والآية الثامنة والثلاثون تتطرق إلى كون القرآن غير مفترى وتقيم الدليل عليه بأنه لو كان كذلك فاستعينوا بمن استطعتم من دون اللّه وافتروا سورة واحدة مثل هذه السُور. وهذه الأصوات جاءت بغية تجسيد هذا التحدي وتيأيسهم وتعجيزهم عن الإتيان بسورة مماثلة لسُوَرِه. وقد كثُر صوت الواو فيه، و«**هو صوت مدور، لأنه يحتاج لنطقه استدارة الشفتين، وفيها جهد وتكلف على الناطق**» (ريمة، م، ص)، وكثيراً ما تَقارنَ هذا الصوت والمواقف التي اتّسمت بالصعوبة، فكأنّ للصعوبة الموجودة في نطقه بالنسبة لسائر الصوائت ومدّ الصوت فيه دلالة على صعوبة هذا التحدي والتعجيز فيه!

وتأملْ معي في هذه الآية التي ترسم لك العذاب بكلّ أبعاده وتفاصيله وتبثّ على النصّ جوّاً من الخوف والهول، ﴿**ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾، فتأملْ في كثرة أصوات المدّ وبالأخص الضمة الطويلة (الواو)، إذ تكررت أربع مرات، وكذلك الضمة القصيرة ومرات تكرارها التسع، وهي التي ـ كما ذُكر ـ تزيد نسبتها في المواقف الصعبة! فلها إسهام كبير في تجسيد العذاب وشدّته، وفي اتساع مخرجها إيحاء بامتداد العذاب ومدته. فقد كان لأصوات الآية ذلك الإيحاء، بحيث إنّ القارئ وهو يقرأ الآية يرى نفسه في ساحة الحساب وعذاب الهول هذا! وفي الآية الرابعة والستين تبشير للمؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة، ﴿**لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾. فتدلّ الحركات الطويلة بنَفَسها الممتدّ على هذه البشارة من اللّه تعالى لعباده المؤمنين والتي امتدّت وشملت حياتهم الدنيا وآخرتهم، وأيّ فوز أكبر من هذا؟!

والآية الثامنة والستون تتطرق إلى الانحراف في العقيدة لدى المشركين، حيث قال الله تعالى: ﴿**قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً**﴾، وإنّ هذا لقول عظيم؛ وهذه العظمة ليست إيجابية وإنما هي سلبية، كما قال تعالى: ﴿**أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيما**﴾ (الإسراء :)؛ أي فإنّ مثل هذا القول لا يجب أن يجرى على الألسنة البتّة، فإنه قول خطير كلّ الخطورة، وقد تمّ توظيف أحرف المدّ لبيان هذه العظمة والخطورة. وفي تتمة الآية، اللّه سبحانه وتعالى ينزّه ذاته من هذه الأقاويل الناتجة عن القصور في الفكر والجهل بذات اللّه القدسية بقوله: ﴿**سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وما فِي الْأَرْضِ**﴾، ومجيء حروف المدّ لتبيين هذا التنزيه والتقديس والتعظيم لذات اللّه تعالى والمبالغة في هذا الأمر.

والآية التالية تشير إلى السببين أو قلْ السبب الرئيسي وراء تكذيبهم لموسى عليه السلام، ﴿**قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ**﴾، فعلا صوتهم ومدّوه لأقصى درجة وأعلنوا جهراً أنّ السبب في تكذيبنا للحق الذي جئت به هو أننا لا نترك سُننا الموروثة التي كان آباؤنا يعبدونها، والأهم من ذلك نخسر حينها الملك والعز في أرض ونخسر الكبرياء وما أدراك ما الكبرياء! هي بيت القصيد في الآية. فلهذا نلاحظ زيادة حروف المدّ واللين في الآية وبالأخص في لفظة "الكبرياء" والتي حظيت بأصوات تتّسم بالوضوح والإبانة والمدّ.

وأمّا الآية الخامسة والثامنون فهي إجابة صريحة اللهجة من القوم على سؤاله الذي وجّهه إليهم بخصوص التوكل على اللّه القدير، ﴿**فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾، فكثرت الحركات الطويلة وعلى الخصوص الفتحة الطويلة في هذه الإجابة الإيجابية التي لا يشوبها شك ولا ريب، وهي التي تتمتع بأعلى وضوح سمعي.

والآية التسعون تشير إلى حين رأى فرعون نفسه لا يفصله عن الموت إلا لُحَيظات، وبعد فوات الفرصة، نفى فرعون الآلهة كلّها و﴿**قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾، وفي مدّ الصوت في الصوائت الموجودة مبالغة في نفي ألوهية سوى اللّه، «**وقد سُمّي هذا المدّ مدّ المبالغة في نفي إلهية سوى اللّه سبحانه وتعالى**» (ابن الجزري، بلا تا، ص)، ويؤكد فرعون قوله هذا بأنّ الله ليس كأيّ إله، وإنما هو اللّه القدير الذي آمنت به بنو إسرائيل.

وتنتهي السورة بدعوة من اللّه تعالى لنبيه محمّد ﷺ إلى اتباع ما يوحى إليه والصبر على ما يقولون وعدم الاكتراث به، ﴿**وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ**﴾، مادام اللّه هو الحاكم، ونِعم الحاكم هو! وفي مدّ الصوت في هذه الحركات الطوال وبالأخص الفتحة الطويلة إيناس للرسول ﷺ وللمؤمنين بحكم اللّه تعالى، وللفتحة القصيرة أيضاً دور في إدخال هذا الإيناس والسكينة على القلوب، فهي حركة أطول وأوضح بين الأصوات كلها، فلها أثر ملحوظ في الإضفاء على النص الإيقاع السَلِس المريح، فالسياق هو الذي يتطلّب هذا الإيقاع المريح، لاسيّما وأنّ الآية هي الأخيرة في السورة.

٥ـ١ـ٤ـ أشباه أصوات اللين

من الضروري عقد مبحث خاص يتطرق إلى هذه الحروف بالذات، لمَ لا؟ فنسبة ترددها في السورة مرتفعة جداً، بل هي الأكبر على الإطلاق. وهي اللام والنون والميم، وهي التي سمّاه البعض أشباه أصوات اللين، حتى إنها تكاد تضاهي أصوات اللين في وضوحها هذا. وهذا ما أكده إبراهيم أنيس، حيث قال إنّ المحدثون «**لاحظوا أنّ اللام والنون والميم أصوات عالية النسبة في الوضوح السمعي، وتشبه أصوات اللين في هذه الصفة، ممّا جعلهم يسمونها شبه أصوات اللين**» (بلا تا، ص). وقد ترددت هذه الأصوات وفقاً للترتيب التالي: اللام وهي أكثر الأصوات وروداً في السورة، إذ بلغ ترددها مرة، وتليها النون والتي كادت تبلغ ما بلغتها اللام بـ مرة، وبعدها الميم بـ تردداً في السورة.

وأما صوت اللام فله حضور مكثفا في السورة، ولا عجب في ذلك، فهو الأكثر الأصوات الساكنة تردداً، كما نصّ على ذلك إبراهيم أنيس، إذ قال: «**النون بعد اللام أكثر الأصوات الساكنة انتشاراً في اللغة العربية**» (المصدر نفسه، ص)؛ إذن في هذا الحضور القوي لصوت اللام ومن بعده النون، اتباع لما هو سائد في اللغة العربية بل سارت على خُطاها. وهنا سنشير إلى أهمّ المواضع تكراراً لهذا الصوت.

فالآية الخامسة، حيث قال اللّه تعالى فيها: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾، فلهذا الحرف ووضوحه لدى السامعين إيحاء بوضوح هذه الآيات في الكون. فهذا الصوت، إضافة إلى ما يتمتع به من وضوح، صوت محبَّب مَرِن كثُرَ في الكلام العربي. ونظراً لما قيل، فقد أضفى هذا الصوت على الآية وضوحاً وإيقاعاً مَرِناً عَذباً. هذا بالإضافة إلى أن الملاحظ في هذه الآية وفي السورة ككلّ، هو أنّ هذا الصوت تردد في المواضع التي فيها دعوة إلى التأمل والتدبّر في آيات اللّه تعالى في الكون وآيات كتابه المجيد، فكأنّ ما يحظى به هذا الصوت من وضوح أو مؤهلات أخرى جعلته يدخل في مثل هذه السياقات، حيث قال تعالى في الآية السادسة عشرة: ﴿**قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾، ففيها دعوة إلى التعقّل في أحوال الرسول ﷺ قبل البعثة وما كان يتّصف به من حسن الخُلُق وبُعده ﷺ عن الافتراء الذي اتّهموه به.

ومن الآيات الأخرى التي تدعو المخاطب إلى التأمل والتدبر وكثُر مجيء اللام فيها هي الآية الخامسة والثلاثون، إذ قال تعالى فيها: ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى**

﴿فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، ما بالكم وما الذي أصابكم؟ وكيف تقدّرون الأمور وبينما تحيدون عن الحق الواضح المبين؟ ففي كلّ هذه الأسئلة دعوة إلى التأمل وأعمال العقل والابتعاد عن الظنون والأوهام التي أبعدتهم عن الحقّ والطريق السويّة. والآية السابعة والستون أيضاً من الآيات التي فيها دعوة إلى التدبّر في آيات اللّه تعالى، وزاد فيها هذا الصوت، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، فهذه الآيات تدعو الإنسان إلى التأمل في هذا النظام الدقيق البديع الصنع، وهي بذلك تدلّ على خالق بارئ حكيم.

وأما من المواقف الأخرى التي كانت لزيادة هذا الصوت فيها ظاهرة أسلوبية مميزة فالآية السادسة والعشرون: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾، وذلك حين يكون الكلام حول أصحاب الجنة وتبشيرهم بالحسنى والمثوبة الحسنة والنعيم المنقطع النظير الذي ينتظرهم. فالمقام مقام التبشير لأولياء اللّه الصالحين. فتردُّ اللام بصوته العذب المحبّب أضفى إيقاعاً رخواً محبّاً على الآية وساهم في إبراز جوّ التبشير في أبهى صورة؛ فكما ذُكر أن هذا الصوت يوحي بالمرونة والليونة، وهذا ما يتناغم مع جوّ التبشير التي تشعّ به الآية. والشاهد على ذلك أنّ هذا الصوت تقارن بشكل ملحوظ مع جوّ التبشير والفرح والسرور؛ وهذا ما يمكن ملاحظته في الآية الثامنة والخمسين، إذ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، فلهذا الصوت سهم في موسيقى هذه الآية العذبة وإدخال الفرح والسرور في القلوب، وهذا ما نراه وبشكل أبرز في الآية الثانية والستين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ففي هذه الآية القصيرة، تكررت اللام سبع مرات مما قد ساهم في سيطرة جوّ الاطمئنان على قلوب أولياء الله، والاطمئنان من المعاني الرقيقة اللينة التي تتناسب مع هذا الصوت. وفي الآية الرابعة و الستين أيضاً تزيد نسبة تردد هذا الصوت في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ففيها بشارة لأولياء اللّه الذين تمّ الحديث عنهم في الآية الثانية والستين، ولهذا كثُرت اللامات فيها. ومما يمكن الإشارة إليه بهذا الصدد الآية الخامسة والثمانون، ففيها حديث عن تضرّع قوم موسى عليه السلام إلى اللّه، ﴿فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فكثرة اللامات جاءت متلائمة جداً مع معاني التوكل على اللّه تعالى وبالأخص معاني التضرّع والالتماس من قوم موسى عليه السلام إلى اللّه تعالى، وهي معان رقيقة. فزادت توكل هذا القوم على اللّه وضوحاً وعزيمة كما زادت التضرع التماساً.

وأما بخصوص الصوتين الآخَرَين وهما النون والميم، فقد تمّ تحليلهما في الآيات بالاعتماد على الحضور المشترك لهما، إلا حين تطلّب الأمر عكس ذلك؛ لأن هذين الحرفَين مُتشابهان في المخرج، حيثما شكّل حضور أحدهما ظاهرة تجلب الانتباه، وتزيد أيضا نسبة هذين الصوتين حضوراً حين يدور الكلام حول تهديد المشركين والمكذبين بآيات اللّه تعالى والعذاب الواقع بهم أو الذي سيقع بهم لا محالة. ومن هذه المواضع: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ ۞ فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾، فكأنّ في حضورهما زيادة في التهويل والتخويف وخاصة في الآية الثامنة والعشرين، حيث فاق حضور الميم فيها الصوتين الآخَرين، أي اللام والنون للدلالة على جمع هؤلاء المشركين كلّهم؛ فهذا الصوت بحضوره يوحي بالجمع والضمّ، بحيث لم يستثنَ منهم أحداً و"جميعاً" يؤكد هذا الأمر. ويظهر هذا الحضور في سياق العذاب في الآية السبعين، في قوله تعالى: ﴿مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾، فقد تكرر صوت النون فيه ست مرات، والأكثر منه تكرار الميمات فيه حيث بلغت مرات تكرارها تسع مرات. وهذا الحضور ساهم في إعلاء وقْع التهديد على الأسماع.

وتأمّل مصير فرعون المتجبّر وما حلّ به في الآيات التسعين والواحدة والتسعين: ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وهذه سنة اللّه مع الجبابرة الطغاة. فقد كان لهذين الصوتين بالإضافة إلى صوت اللام الذي لم يكن حضوره قليلاً فيها، مساهمة في ترسيم ساعة العذاب وتبكيت للمشركين بصورة واضحة لا غبار عليها؛ أالآن أيها الطاغية تؤمن حيث لا اختيار ولا فرار؟ أالآن وقد تماديت في عصيانك واستكبارك؟!

وقد جسّد صوت النون هذا الوضوح والبروز بصورة جلية في الآية التالية: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ﴾، فالغرض جعل فرعون المتجبّر آية وعبرة أمام الناظرين آية في غاية الوضوح والبروز؛ وجاء توظيف النونات فيه بغية تجسيد هذا الوضوح لأقصى درجة.

ومن الآيات الملفتة للنظر في خاتمة هذا البحث، والتي كثُر حضور هذين الصوتين فيها هي الآيتان الخامسة والسبعون والسادسة والسبعون، حيث قال تعالى فيهما في توصيف استعلاء فرعون وجبروته: ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ۞ فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، فدلّ هذان الصوتان بحضورهما الذي فاق اللام كثرةً على استعلاء فرعون المتمرّد وساهما في تجسيد جبروته وعتوّه.

الخاتمة

تطرقت هذه الدراسة إلى سورة يونس عليه السلام، وهي من السور المكية من منظار بُعدها الصوتي. وبما أنّ اللغة هي الأداة والوسيلة الوحيدة التي تلعب دور الرابط بين المتكلم والمتلقي، فانصبَّ جُلّ اهتمامنا على هذه اللغة وبنيتها الصوتية وما تكمن من دلالات موحية على ما أراد الله الحكيم من هذه السورة ومن اختياره لألفاظ وأصوات خاصة؛ فاللّه الحكيم لا يأتي بلفظ أو صوت إلا وله دلالة موحية وهو يدلّ على المعنى بصورة لا تدانيها صورة في دلالته.

فقد تمّ دراسة هذه اللغة وبُعدها الصوتي في السورة. ومِن أهمّ ما توصّلت إليه الدراسة هو:

ـ اتضح لنا أنّ الإيقاع الهادئ الرزين يسيطر على أغلب أرجاء السورة؛

ـ تميل الأصوات إلى الجهر أكثر من ميلها إلى الهمس، وكذلك إلى الشدة أكثر من ميلها إلى الرخاوة؛

ـ قد وظّف التعبير القرآني أصوات الجهر والهمس والأصوات الشديدة والرخوة والمتوسطة وغيرها من الأصوات توظيفاً يقصد تصوير وتجسيد المواقف والأحداث والمعاني وتشخيصها تشخيصاً يشعرنا بما تحمل هذه الأصوات من معانٍ ودلالات، وكل ذلك على حسب شحنات هذه الأصوات وإيحاءاتها الدلالية؛

ـ قد كثرت أصوات الجهر في المواضيع البالغة الأهمية المرتبطة بصميم الإسلام، كمسألة الرسالة ومنكريها؛ فكأنَّ وضوحها السمعي أكثر تماشياً مع مثل هذه المواضيع ويساهم في تجسيدها. ولهذا فقد كثُر هذا النوع مِن الحروف لردع الشك والريب ونفي المعتقدات الباطلة، كما أنه زادت نسبة تكرارها حين مخاطبة الغَفَلة مِن الناسِ، وأيضاً كثُرَت في مقام التهديد؛

ـ قد زادت نسبة تكرار أصوات الهمس في المقام الذي بحاجة إلى التعمّق والتدّبر وزادت أيضا نسبتها حين سرد القصص، كما تمّ توظيفها في السورة لتجسيد الهدوء والسكينة والدَّعّة؛

ـ قد كثُرت الأصوات الشديدة كالأصوات المجهورة في مقام الذي يتمّ فيه التطرق إلى مواضيع ذات أهمية ؛ فكأنَّ الشدة في الصوت تُوحي بِكبَرِ الموضوع وأهميتهِ، كما أنه تمّ توظيفها لتجسيد القوة والشدة والغلظة في القول والعمل، وكثُرت أيضاً في المقام الدال على الاضطراب والانفعال ؛

– الأصوات الرخوة قد كثُرت لتجسيد الطمأنينة والأريحية وكذلك لترسيم جوٍّ خالٍ مِن الغضب والانفعال، وزادت نسبتها حين الحديث عن جوٍّ خالٍ مِن الغضبِ والانفعال، كتبشير أولياء اللّه بحياة هانئة حلوة ؛

– قد ساهمت أصوات المدّ في جلب انتباه السامع و زادت في السياق الذي فيه دعوة إلى التأمل والتدّبّر ؛ فإنها تلفت الأذهان إلى ما تمنح من وقت زمني للتأمل والتفكر، كما أنه زادت نسبتها في مقام التعجب والدهشة وفي مقام الترهيب والتعذيب لبيان العظمة والمبالغة ؛

– صوت اللام قد كثُر في مقام التدبّر والتعقل وفي المعاني الرقيقة والتبشير بالجنة والنعيم، كما كان له إسهام في إدخال الفرح والسرور في قلوب أولياء اللهّ الخُلَّص ؛

– قد كثُرت نسبة ورود صوتي النون والميم حين يدور الكلام حول تهديد المشركين وتبكيتهم والعذاب الواقع بهم ؛ فكأن ما يتمتعان به من وضوح سمعي له إسهام في تجسيد العذاب بصورة أكثر وضوحاً.

❁❁❁

المصادر والمراجع

❁ ***القرآن الكريم***

١. الآلوسي، سيد محمود. (١٤١٥ هـ.ق). ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم***. (ج ٦). (ط ١). بيروت: دار الكتب العلمية.

٢. إبراهيم، مصطفى إبراهيم رجب. (٢٠٠٢ -٢٠٠٣ م). ***البنية الصوتية في شعر عبد الناصر صالح***. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة.

٣. ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي. (بلا تا). ***النشر في القراءات العشر***. (صححه علي محمد الضباع). بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (بلا تا). ***سر صناعة الإعراب***. (تحقيق حسن الهنداوي). بلا م. بلا ن.

٥. ابن عاشور، محمد بن طاهر. (بلا تا). ***التحرير والتنوير***. (ج ١١). (ط ١). بيروت: مؤسسة التاريخ.

٦. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (بلا تا). ***لسان العرب***. (تحقيق عبد اللّه علي الكبير وآخرون). مصر: دار المعارف.

٧. أبو العدوس، يوسف. (١٤٣٠ هـ.ق). ***الأسلوبية ؛ بين النظرية والتطبيق***. (ط ٢). عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

٨. أنيس، إبراهيم. (بلا تا). ***الأصوات اللغوية***. القاهرة: نهضة مصر.

٩. بشر، كمال. (٢٠٠٠ م). ***علم الأصوات***. القاهرة: دار غريب للطباعة و النشر.

١٠. بلال، سامي أحمود الفقهاء. (٢٠١٢ م). ***سورة الواقعة ؛ دراسة أسلوبية. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها***. جامعة الشرق الأوسط، كلية الآداب والعلوم.

١١. تاوريريت، بشير. (٢٠٠٦ م). ***محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر***. قسنطينة: دار الفجر للطباعة والنشر.

١٢. الحوي، سعيد. (١٤٢٤ هـ.ق). ***الأساس في التفسير***. (ج ٥). (ط ٦). القاهرة: دار السلام.

١٣. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين. (١٤٢٠هـ.ق). ***مفاتيح الغيب***. (ج ١٧). (ط ٣). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٤. الرافعي، مصطفى صادق. (١٣٩٣ هـ.ق). ***إعجاز القرآن والبلاغة النبوية***. (ط ٩). بيروت: دار الكتاب العربي.

١٥. ريمة، يحي. (٢٠١٢/٢٠١٣ م). ***مقصورة بن دريد مقاربة صوتية دلالية***. رسالة ماجستير في علوم اللسان، جامعة الحاج لخضر ـ باتنة، كلية الآداب و اللغات.

١٦. سليمان، فتح اللّه أحمد. (١٤٢٥ هـ.ق). ***الأسلوبية؛ مدخل نظري ودراسة تطبيقية***. القاهرة: مكتبة الآداب.

١٧. سيد قطب، سيد بن قطب بن إبراهيم شاذلي. (١٤١٢ هـ.ق). ***في ظلال القرآن***. (ج ٣). (ط ١٧). بيروت والقاهرة: دار الشروق.

١٨. الشايب، أحمد. (١٤١١ هـ.ق). ***الأسلوب؛ دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الإنشائية***. (ط ٨). مصر: مكتبة النهضة المصرية.

١٩. الطباطبايي، سيد محمد حسين. (١٤١٧ هـ.ق). ***الميزان في تفسير القرآن***. (ج١٠). (ط ٥). قم: انتشارات إسلامي جامعه مدرسين حوزه علميه قم.

٢٠. عباس، حسن. (١٩٩٨ م). ***خصائص الحروف العربية ومعانيها***. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

٢١. عمر، أحمد مختار. (١٩٨٨ م). ***البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر***. (ط ٦). القاهرة: عالم الكتب.

٢٢. عودة، خليل. (١٩٩٤ م). «المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي». ***مجلة النجاح للأبحاث***. ج ٢. ع ٨. صص ١١٦ ـ ٩٩.

٢٣. فضل اللّه، سيد محمد حسين. (١٤١٩ هـ.ق). ***تفسير من وحى القرآن***. (ج ١١). بيروت: دار الملاك للطباعة والنشر.

٢٤. كاشاني، ملا فتح اللّه. (١٤٢٣هـ.ق). ***زبدة التفاسير***. (ج ٣). قم: بنياد معارف اسلامى.

٢٥. محمدي ركعتي، دانش؛ وعلي رضا محمدرضايي. (١٣٩٢ هـ.ش). «سورة نوح (ع)؛ دراسة أسلوبية دلالية في مستوى الصوت والصرف». ***مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها***. ع ٩. صص ٦٨ ـ ٥١.

٢٦. مروان، محمد سعيد عبد الرحمن. (٢٠٠٦ م). ***دراسة أسلوبية في سورة الكهف***. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية، كلية الآداب واللغات، نابلس، فلسطين.

٢٧. مهدي، عناد أحمد قبها، (٢٠١١ م). ***التحليل الصوتي للنص؛ بعض قصار السور نموذجاً***. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية، كلية الآداب واللغات، نابلس، فلسطين.